**رسالة الأدب العربي**

هناك قضية شكلية لها علاقة بالموضوع وهي هذا التقسيم إلى العصور الذي ينبغي أن يعاد فيه النظر كالتقسيم على الأقطار لأنه كذلك تقليد محض لمنهاج البحث في الأدب الأوروبي ولعله تقليد له في العرض دون الجوهر، وإلا فليس بلازم أن يكون لعصر الجاهلية أدب ولعصر صدر الإسلام أدب ولعصر الأمويين أدب، وهكذا حتى تنتهي العصور، وتكون النتيجة تعصب قوم لأدب وآخرين لغيره مما لا يوحى به إلا النزعات الإقليمية وهي إلى مذهب الشعوبية أقرب منها إلى القومية العربية.

فالسياسة لا تؤثر هذا التأثير البليغ في تكييف المذاهب الأدبية وهي بالفعل لم تؤثر في أدب هذه العصور بما يجعله يتمايز حتى يستقل عصر عن عصر. ولقد كان أئمتنا الأولون أدق نظرا وأقوم ميزانا حين جعلوا هذه العصور الثلاثة عصرا واحدا، واعتبروا نتاجها الأدبي نتاجا عربيا أصيلا، ولا هجنة فيه ولا إقراف. وذلك حين قرروا الاستشهاد به على قواعد العربية وعلوم اللغة.

ومن العجيب أن هذه اللغة الخالدة التي تتسع اليوم لكل الأفكار الحديثة من فلسفية واجتماعية وعلمية وفنية وتؤديها بكل وضوح، هي هي بنفسها لغة عصر السليقة، ولغة عصر السابقين. فالأديب العربي في هذا العصر يتغلغل في وصف أسرار النفس البشرية، ويحلل مشاعرها العميقة، حتى يجسمها تجسيما يوشك أن يلمس باليد، ويغوص إلى أعماق القلوب يستخلص مكنوناتها الدفينة، ويجلوها عواطف إنسانية تكاد تنبض بالحياة. وهو في ذلك كله لا يستعمل إلا الكلمات المعهودة، والمفردات المعروفة، لكل ناطق بالضاد منذ أن فتق الله بها لسان يعرب بن قحطان.

ورسالة الأدب العربي، رسالة مُقَدَّسة يجب ألا تقتصر على الأغراض اللَّفظية، ولا على المُتْعَة الذِّهنية، ولا على المعاني الذَّاتِيَّة التي لا يشعر بها إلا الأديب المُتكلِّم نفسه، إنَّها رسالة! ومفهوم هذا اللَّفظ ممَّا ينبغي ألا يَغْرُب عن البال، فهو مهمة تَقْتضي الهَدْم والبِناء، والعمَل الجَماعي المُؤَدّي إلى الغاية التي أَدَّت إليها رسالة النَّبيئين من قبل، غايتُه فَتْحُ الآذان الصم، والأَعْيُن العُمْي، والقُلوب الغُلْف، على دَعْوَة الحَق التي تُنْقِذ البشريَّة من ضَلالها الحديث، كما أَنقذَتْها بالأمس من ضَلالها القديم، وإنَّها مُقَدَّسة : وليس المراد بهذا الوَصْف مَعْناه الخَيالي الذي يَبْتَذِلُه الحالمون، وإنَّما المُراد به الإكْبار من شأن هذه الرِّسالة، ذات المَسْؤولِيَّة العُظْمى، التي لا يَتحَمَّلُها إلا أبطال الكفاح من أجل القِيَم الإنسانِيَّة العُلْيا، فهم المجاهدون الذين يَزْري مِدادُ أقلامهِم بدمِ الشهَداء.

والخلاصة أن أدبنا لم تكن له رسالة يعنى بها في الدرجة الأولى إلا رسالة إقامة الألسنة وشحذ الأذهان، فلذلك لم يعن بهذه الآثار القيمة ولم يدرسها دراسة المتنخل لها المتعرف لدخائلها. فنحن إذا أردنا أن نجعل من أدبنا أدبا حيا ذا رسالة سامية فلا بد لنا من إعادَة النَّظَر في موادِّه وأُصوله، وتَرْتيبها على حسَب المَقاصِد والأَغْراض، مُجَسِّمين منها كلَّ ما له دَلالة تَطورِيَّة ودعوة تحَررِيَّة، ومَوَضِّحين للأجيال النَّاشِئَة أهدافَ الرِّسالة الإنسانِيَّة، التي يقوم الأدب العربي على حِفْظِها ورِعايتِها، وهِداية البشر إلى ما فيها من خَيْر وسَلام، ومعرفة وإيمان.

كنون عبد الله، خل و بقل، مجموعات مقالات أدبية و نقدية، المطبعة المهدية، تطوان، بدون تاريخ، ص ص : 148 – 158.